



النقد القديم بين سلطة النص الجاهلي وسلطة النص المحدث الأستاذة: بلوفاي حليلة /المركز الجامعي عين موشت

إن الشعر في العرف النقدي القديم رديف الموهبة التي لا تتأتى لجميع الناس، ولذلك ذم أكثر النقاد القدامى الشعر المصنوع الذي يُسقط النص في التكلف، وتُظهر الصنعة في ألفاظه وصيغته وفي صوره و تشابيهه، وينعكس ذلك على المعاني التي تتوارى خلف السبك المبهم للألفاظ، كما أن النص الشعري تتبدى فيه عيوب تخرجه من دائرة النصوص الفنية، ويُظهر الشاعر عجزا في توظيف إمكانات اللغة سواء في إيراد الصورة الفنية الساحرة مع الوصف الدقيق والخيال المبدع، أو في ضرب الأمثال واحترام سنن العربية في التركيب. يقول ابن سلام الجمحي وهو يذم الشعر المصنوع: "وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع لا خير فيه، ولا حجة في عربية، وأدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف"¹ كما أن شعر الصنعة لا يعني عدم اهتمام الشاعر بانتقاء اللفظ وتعهد البيت بالمراجعة ومعالجة الأخطاء، كشأن شعراء الجاهلية، تخيروا ألفاظ قصائدهم، ونقحوا أبياتهم، فلم تخرج أشعارهم للناس إلا وهي جيدة السبك قوية اللفظ شريفة المعنى وكان يمثل هذا الاتجاه الشاعر زهير بن أبي سلمى وهو أحد الشعراء المجيدين، والسباقين للصياغة الجميلة والصورة العجيبة والمعنى اللطيف، وإنما إذا كانت الصنعة مُذهبة بخصائص الشعر - كما وضحها ابن سلام - فإن ذلك يعد خروجاً عن مألوف ما توارثه الناس عن القول الشعري البديع.

والملاحظ أن ابن سلام يعاين ظاهرة في الشعر - في عصره - بدأت تبرز بعض ملامحها وهي التطفل على حلقة الشعراء الفحول، ومحاولة تقفي سبيلهم في



تعاطي القريض ، ونسي هؤلاء أن الشعر ليس رصف للألفاظ وإخضاعها لتراعي الوزن وتحقق القافية الموحدة ، وإنما الشعر – كما قال ابن سلام – هو الذي يترفع فيه صاحبه عن الوضع المتكلف ، ويحقق من خلاله خدمة للعربية فضلا عما يحتويه من الصيغ والمعاني المستطرفة .

واتخذ النقاد القدامى ، من تأملاتهم الكثيرة في النص الشعري الجاهلي، نظرية عامة وضعوا من خلالها خصائص القول الشعري الفصيح ، تتعلق أساسا بالشكل الفني للنص ، والتعبير عن المعاني بأدوات التصوير والتخييل ، فكان النص الجاهلي مسبارا تقاس عليه كل النصوص التي أتت بعده ، وإن بعدت عن شكله واتخذت سبيلا يبدو مغايرا لتغاير العصر ، إلا أن النقد القديم بقي متشبثا بتلك الخصائص التي سيضعها أبو علي المرزوقي في القرن الخامس الهجري في شكل قواعد سماها بـ "عمود الشعر". يقول ابن سلام الجمحي وهو ينقب عن خصائص القول الشعري كما تبدت عند امرئ القيس: "فاحتجّ لامرئ القيس من يقدمه قال : ما قال ما لم يقولوا ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب ، واتبعه فيها الشعراء : استيقاف صحبه ، والتبكاء في الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالطباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد ، وأجاد في التشبيه وفصل بين النسيب وبين المعنى ."² هذه الأنماط التعبيرية – كما وُصفت لدى امرئ القيس – ، هي التي شكلت تراتبا في الرؤية النقدية لم يستطع النقاد في العصور التالية اختراقها أو تغييرها إلا عندما حرق النص الإبداعي سنن التأليف التي اعتادها الناس ، وألفتها الأذن العربية طيلة عقود كثيرة من الزمن .

فالظواهر الشكلية في النص القديم، هي التي استرعت انتباه اللغويين من النقاد ، ولم تصبح ظواهر مطردة إلا عندما وسّع هؤلاء اللغويون نظرهم إلى جميع النصوص ، كان دافعهم توثيق رواية أو تفنيد مذهب نحوي أو فكري أو ترسيخ



فكرة أو رأي ، ولكن عندما تعامل هؤلاء النقاد مع النصوص وتمسوا عليها عنت لهم أشكال من الصور الشعرية والتي اتخذها البعض منهم مقياسا لترتيب الشعراء - خاصة - في سلم الجودة مع تدعيم ذلك بالمعايير التي اعتمدت في الترتيب والمفاضلة ، وهي معايير ذاتية انطباعية ، أبدعها الناقد من تكرار التأمل وطول المعاناة للنصوص ، ف "الديباجة" - مثلا - مصطلح أسسه ابن سلام على ملاحظاته المتدبرة للشكل الشعري المتمثل أساسا في المعجم اللفظي ، وما يترتب عن ذلك من تجويد في الصيغ التعبيرية ، وتشكيل للصور الفنية ، وانسجام النص في مقاطعه واتساقه في توارده دلالاته مما يكسبه ديباجة فنية لطيفة . وإن عدّ النقاد الاهتمام بالديباجة تكلفا إلا أن اتصافها بخصائص إبداعية جميلة ، جعلها أدخل في باب الطبع منه في باب التكلف . يقول ابن سلام وهو يصف شعر النابغة الذبياني : "...وقال من احتجّ للنابغة: كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتا كأنّ شعره كلام ليس فيه تكلف." ¹ فالنابغة قدم نصوصا خدمت العربية ، ولذلك كانت هذه النصوص مما يُحتجُّ به في تثبيت قاعدة نحوية أو تفسير رأي أو نص . فضلا عما تحمله من قيم جمالية جمعها ابن سلام في الديباجة الحسنة ، والكلام المرونق والبيت الجزل ، فنصوص الأدب الجاهلي كما تعامل معها النقاد اللغويون القدامى جمعت بين البعد الوظيفي المتمثل في الاحتجاج بها والبعد الجمالي المتمثل في ما تركه عند المتلقي من إحساس بجمال التعبير وحسن البيان ورونق الصياغة .

وقد استقر لدى النقاد القدامى ، الذين وجدوا قبلهم تراثا نقديا ناشئا ، أنه من الضروري وضع قواعد نظرية لحسن القول الشعري كما وجدت في تلك



الانطباعات التي شكلت معظم مادة ذلك التراث النقدي، فانكفاً هؤلاء النقاد على تأليف الكتب والمدونات كما صنع ابن طباطبا وابن المعتز والمرزباني وغيرهم. يقول ابن طباطبا، وهو يحدد سنن القول الشعري لدى القدامى، ومساهما في الوقت ذاته في تشكيل عمود الشعر العربي القديم، : " ... والسنن المستدلة منها - أي من كلام العرب - وتعريضها وتصريحها وإطنابها وتقصيرها، وإطالتها وإيجازها ولطفها وخلاقتها، وعدوبة ألفاظها، وجزالة معانيها، وحسن مبادئها، وحلاوة مقاطعها وإيفاء كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة".²

هذه السنن الموهلة في التصنيف والتدقيق هي التي ستكون حاجزا منيعا أمام المحدثين من الشعراء في العصور التالية، لأنها تمثل تراثا تليدا لا يمكن أن تتجاوزه الأجيال، وإلا تضيع وظيفة الشعر في الاحتجاج وإمتاعه الجمالي لدى المتلقين، والملاحظ عند ابن طباطبا، هو الإضافات الجزئية الهامة التي أضافها على ما قدمه ابن سلام في هذا المجال، فاتحا حقلا جديدا في الدراسات اللغوية في زمنه يختص ببلاغة النص ونواحيه الجمالية، وهو ما تمثل في علم البلاغة الذي سيأخذ مساحة هامة في اهتمامات النقاد القدامى، خاصة عند الجاحظ وابن المعتز والمرزباني. وليؤكد مقولة أن البلاغة خرجت من رحم النقد لتعود إليه ضمن مباحثه في استثمار قيم النص الجمالية، وأبعاده التخيلية.

والقيم الجمالية، هي التي ستطبع النص المحدث في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي، وسيبحث النقاد الذين واكبوا التحول الناشئ في بنية الشعر - بعد العصر الجاهلي - عن خصوصيات النص الجديد، والعلاقة التي تربطه



بالنص القديم، وهل فعلا أبدع الشعراء المحدثون مقاييسهم الخاصة في صناعة الشعر أم الأمر لا يعدو أن يكون نسخا وإعادة لبنية قديمة في شكل جديد؟ يقول ابن طباطبا محاولا إيجاد العلاقة بين النصين - القديم والمحدث - : "وستعثر في أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ، ولطفوا في تناول أصولها منهم ولبسوها على من بعدهم ، وتكثروا بإبداعها فسلمت لهم عند ادّعائها ، للطيف سحرهم فيها ، وزخرفتهم لمعانيها ."³ فالنص القديم إذن كان هو المعول عليه في بعث النص المحدث ، إلا أن ذلك لم يكن بالشكل الذي يجعل النص الجديد ظلا للنص القديم ، فالشاعر المحدث - وإن استفاد من النص القديم - إلا أنه أبدع في نصه ، وأسس شعره على معطيات عصره ومعاني بيئته الجديدة ، فجاء النص المحدث ذا سحر متميز ، وشكل معجب .

وحتى لو سقطت بعض النصوص المحدثّة في اجترار معان سابقة ، إلا أن ما يشفع لأصحابها أنهم تأثروا بالفحول من الشعراء - خاصة أصحاب المعلقات - ولم يستطيعوا التخلص من سلطتها وهيمنتها على مملكة الشعر عصورا طويلة ، ولذلك لم يكونوا بمنأى عن الانتقاد المقذع ، و الصّدّ الموجه من قبل جمهور النقاد القدامى ، الذين وقعوا هم الآخرون تحت سطوة النص القديم ، فاستخرجوا منه قوانين - الشعر ، ووضعوا من خلالها إطارا منيعا لا يجوز لأي كان من الشعراء تخطيه أو تناسيه ، فلا معجم شعري إلا الذي كان في النص القديم ، ولا سبك جديد إلا الذي لا يخرج عن شكل الصياغة القديمة ، ولا إبداع في معنى غريب ، يقول ابن طباطبا ملتصقا بالأعداء للشعراء المحدثين في قصورهم عن بلوغ بعض ما بلغه الأقدمون : "والحنّة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على



من كان قبلهم، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلاصة ساحرة، فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ولا يربي عليها لم يتلقَ بالقبول، وكان كالمطرح المملول⁴. فالشعراء الذين قادوا حركة التجديد في بنية النص الشعري، عانوا كثيرا من صدود الناس عنهم في بداية الأمر، لأن النقاد هم الذين أضحووا يشكّلون ذائقة المتلقين للشعر، بعد أن كان المتلقي نفسه هو الذي يبدي إعجابه الخاص بالشعر، و مردّ ذلك - في اعتقادي - إلى صفاء الملكة اللغوية، وخلو السليقة العربية من شوائب اللحن القادمة من اختلاط العرب بغيرها من الشعوب.

وقد اجتهد غير قليل من النقاد القدامى في إحصاء محاسن الطبقة الثانية من الشعراء الذين وجدوا أمامهم تراثا من الشعر الجيد، فلم يقدروا في بادئ الأمر على مجاراته والإتيان بمثله، إلا أنهم اجتهدوا في تمييز نصوصهم بتجويد اللفظ واختيار المعنى، وإفراد الموضوع الواحد بنص مستقل، بعدما كان تورّد مواضيع كثيرة داخل النص الواحد: فهناك موضوع الوصف وموضوع الرحلة وموضوع الصيد وموضوع النسيب وغير ذلك من المواضيع. يعدد ابن طباطبا فضل الشعراء المحدثين فيقول: "والشعراء في عصرنا إنما يثابون على ما يستحسن من لطيف ما يوردونه من أشعارهم، وبديع ما يغربونه من معانيهم، وبلغ ما ينظمونه من ألفاظهم، ومضحك ما يوردونه من نوادرهم، وأنيق ما ينسجونه من وشي قولهم دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح والمهجاء وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها".⁵ هذه هي خصائص الشعر الجديد التي بدأت ترسم معالم النص الجديد، وبدأ معها النقاد يؤسسون لمعايير جديدة تأخذ بكل المعطيات



التي صَحبت انبعاثَ ذوق جديد ، وما كان لهذا النص الجديد أن يأخذ حيزاً له داخل منظومة المعرفة العامة في العصر، لولا وجود تجاوب بينه وبين أذواق المتلقين من جميع الأصناف .

إلا أن النقاد القدامى ، كانت لهم ملاحظاتهم التقييمية لنصوص لم ترق إلى مرتبة القول الشعري البليغ ، فسجلوا انطباعاتهم حولها ، واتخذوا من عيوبها مطية لوضع قواعد الشعر ، وحذروا من الأخطاء التي يقع فيها بعض الشعراء المحدثين ، من ذلك تحميل الألفاظ الكثيرة معان قليلة مما يوقع الخطأب الشعري فيما سماه ابن طباطبا " سفاسف الكلام " أو يكون اللفظ "سخيفاً" غير شريف في دلالاته ، كما أن المعاني تكون "مستبردة " إذا كانت قد استُهلكت كثيراً ، ودارت في نصوص شعراء كثر، فأضحت الأذواق تُحجَّها ، يقول ابن طباطبا معدداً عيوب القول الشعري: "... واجتناب ما يشينه - أي الشعر - من سفاسف الكلام وسخيف اللفظ، والمعاني المستبردة، والتشبيهات الكاذبة، والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة..."⁶ والناقد القديم كانت تَوَطَّر ملاحظاته النظرة " الأخلاقية " للشعر، ولذلك نلاحظ التوظيف البارز للمعجم الأخلاقي في توصيف الظاهر الشعرية والأدبية - بصفة عامة - ذلك أن منظومة المعرفة ، في العصور الأولى لظهور الانطباعات النقدية ، كانت منظومة واحدة غير مجزأة ، فالأدبي لا ينفصل عن الأخلاقي ، والعلمي لا ينفصل عن الفقهي ، فلا عجب إذ نقرأ عن فقه اللغة مقابل فقه الدين ، وعن القياس النحوي مقابل القياس الأصولي، وهكذا ... فالمنظومة النقدية القديمة، هي جزء من منظومة عامة كانت تشرف على تصريف المعرفة ، ووضع قواعد العلم والأدب وسائر الفنون .



والتحديث في بنية الشعر ، لم يكتسب أنصارا كثر من النقاد ، بل إن منهم من أبدى إعجابه بهذا الشعر ، إلا أنه كان يكتنم إعجابه ، ويترك أمر الترجيح في المفاضلة بين القديم والحديث إلى جمهور القراء ، وقد نهج الآمدي في " الموازنة " بين أبي تمام الذي يمثل التحديث في الشعر والبحثري الذي يمثل التقليد ، منهجا وسطيا موضوعيا إلا أنه كان يميل إلى البحثري منه إلى أبي تمام ، وما تفسير ذلك إلا تشبث الآمدي بعمود الشعر ، وإعلائه من شأن النص القديم الذي تمثله — خاصة — القصيدة الجاهلية . يقول الآمدي منتصرا لمذهب المقلديين من الشعراء ، ومخاطبا أنصار المحدثين : "...فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه إليه وصار استكثاره منه وإفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وحصل للبحثري أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة ، مع ما نجده كثيرا في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة ، وانفراده بحسن العبارة ، وحلاوة الألفاظ وصحة المعاني ، حتى وقع الإجماع على استحسان شعره واستجادته" ⁷ فالنص الشعري الحديث — كما يشير إلى ذلك الآمدي — وإن احترق قواعد النص القديم إلا أنه تعرضت بنيته إلى تغييرات جزئية أضحت تشكل نتوء بارزا بالمقارنة مع بنية القصيدة الجاهلية مثلا ، ولذلك فالبحتري — وإن لم يفارق عمود الشعر ، إلا أنه برزت عنده العناية بالبديع ، وبالألفاظ ، وبالأسلوب عموما ، والمتفحص ، لشعره ولشعر المقلدين من الشعراء الذين عايشوا فترة التحول لبنية النص ولمضامينه ، يدرك البوادر والعلامات المشكلة لمعالم النص المحدث ، فالمعجم المفرداتي والصيغ التعبيرية ، بل والقيم الأسلوبية ، الحاملة لمضامين فوق لغوية كالسخرية والتهكم والاستهزاء وما إلى ذلك ، تعدّ سمات بارزة في النص المقلد الذي يمثله شعراء من



العصر الأموي والعصر العباسي ، فالمفارقات التي أضحت تحملها الحياة الجديدة ، والتناقضات المعيشية التي طفت على سطح المجتمع ، أدت كلها إلى بروز تلك القيم الأسلوبية . بينما لا نكاد نعثر في النص القديم على ما يمكن نعتة بالقيم التعبيرية ، لأن الحياة الطبيعية البسيطة لم تفرز تناقضات ولا مفارقات عجيبة ، وهذا - مثلاً - ما يفسر خلو النصوص الشعرية القديمة في العصر الجاهلي من طابع السخرية . وشكلت خصائص النص القديم، في اللغة والصورة والتعبير والأسلوب ، والابتعاد عن الزخرف والتخييل المشين ، عُدَّة النقاد في عصر التنظير. يقول القاضي الجرجاني(ت329) : "...وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتُسَلِّم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله ، وشوارد أبياته ، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام القريض ."⁸ فعمود الشعر ، هو المعيار لكل قول ، والموجه لمن أراد نهج طريق قرض الشعر الجيد ، في نظر القاضي الجرجاني .

ولم يسلم الشعراء المحدثون - كما ألحنا - من ملاحقة النقاد الذين كانوا يميلون إلى عمود الشعر ، وينادون بضرورة أن يكون الشعر على منوال الفحول ، وعُدَّة خروج الشاعر عن نهج الأقدمين خروجاً عن جوهر الشعر، وجمعاً لعيوب لا حصر لها من الغثاثة والوخامة و العوص والتكلف والخلل والسخف وما إلى ذلك. وقد عُدَّ القاضي الجرجاني جملة من المعايير لاحظها في شعر المتنبي الذي دارت حول نصوصه حوارات كثيرة وجدل طويل يقول الجرجاني : "...قلت



وقد جمع - أي المتنبى - في هذه الأبيات وفي غيرها مما احتذى به حذوها بين البرد والغثاء وبين الثقل والوخامة ، فأبعد الاستعارة وعوّص اللفظ وعقّد الكلام ، وأساء الترتيب ، وبالع في التكلف ، وزاد في التعمق حتى خرج في السّخف في بعض ، وإلى الإخالة في بعض ⁹ وهذه المعايير - في حقيقتها - تعبر عن خروج المتنبى عن سنن القول كما وضعها النقاد المؤسسين لعمود الشعر ، وسيأتي نخبة من النقاد اللغويين الذين سيرفعون هذه المعايير لتحول إلى محاسن وفضائل وذلك حين يلتمسون لها تخريجا دلاليا آخر عن طريق التأويل بكل أصنافه خاصة التأويل النحوي و التأويل الدلالي ، من هؤلاء النقاد ابن جني شارح ديوان المتنبى ، والخبير بخبائيا شعره.

هوامش البحث :

- 1-طبقات فحول الشعراء ص84 تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني -ط2-
- القاهرة 1974
- 2-المصدر السابق ص142
- 3-المصدر السابق ص145
- 4-المصدر السابق ص12
- 5-عيار الشعر ص6
- 6-المصدر نفسه ص13
- 7-المصدر نفسه ص13
- 8-المصدر السابق ص6
- 9-الموازنة : ص126 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة 1985



- 10-الوساطة بين المتنبّي وخصومه ص165 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي
محمد البجاوي منشورات المكتبة العصرية ط2 بيروت 1998
- 11-المصدر السابق ص92